رسالة القرآن في عصر العلم
الآفاق التي فتحها القرآن أمام فكر الإنسان

محمد المكي الناصري

تمهيد :

عندما أكرم الله الإنسانية بنزول القرآن كان نزوله بالنسبة لها نقطة انطلاق نحو مرحلة جديدة، وخطوة عملاقة لم تعرفها في أيّ عصر من العصور، وأكرم الله أُمّة القرآن التي استجابت لله والرسول فاستوعبت رسالته العظمى وبادرت إلى الاهتداء بهديه، واتخذته رائدها وقائدها، ودليلها ومرشدها، وجعلت منه المفتاح الذي تفتح به أقفال المعرفة، والمصباح الذي تخترق بنوره حُجب الكون المجهول.

وبفضل توجيه القرآن الكريم، وتربيته الفكرية والخُلقية المُثلى، وإشادته بمكانة العلم والعلماء، وتحريره للعقل البشري من الخُرافات والأوْهام، ودعوته الملِحّة إلى حلّ ألغاز الكون والكشف عن آيات الله البيِّنات في الأَنْفُس والآفاق، ورسمه الطريق الصّحيح والمضمون، لنُمّو العلم وتطوره إلى أقصى الغايات، لم يلبث المسلمون إلاّ قليلاً حتى أخذوا يسرَحون ويَمرَحون، ويجُولون ويصولُون في آفاق العِلم الواسعة، التي لا عَهْد للبشرية بها، وأَصبحت لهم الكلمة العُليا والقول الفصل في جميع مجالات الحياة التي خاضوها عن بيِّنة وعلى بصيرة، وبإيمان راسخ.

واقتناعاً منهم بسماحة الإسلام، وسعَة صدره، وامتِداد أُفقه، وإيماناً بأنّ الله أقامهم حرّاساً أُمناء، على تراث الإنسانية جمعاء، أخذوا على عاتقهم - باسم الإسلام والقرآن - إحيَاء ما اندثر من بقايا العلوم والفنون التي كان الفكر الإنساني القديم قد وصل إليها، رغم قِلّتها، وضيق مجالها، واختلاط الحقّ فيها بالباطل، والصواب بالخطأ، فصحّحوا ما فيها من أغلاط وأخطاء، ووسّعوا نطاقها، ونقّوها من شوائب الأوهام والخرافات، والأضاليل والتُّرهات، واستحدثوا منهجاً عِلمياً جديداً استمدوه من روح القرآن، التي تعتمد على المُشاهدة والتجربة ولا تقبل سوى الحُجّة والبرهان، فابتكروا بفضل المنهج القرآني عُلوماً عديدة، فَتحت في وجه الإنسانية آفاقا جديدة، وأصبحت تلك العلوم التي ابتكروها عماد الحضارة وقِمّة العلم منذ ظهورها على أيديهم حتى اليوم، وهكذا رفعوا راية العلم خفّاقة في المشرق والمغرب، وحقّقوا «رسالة القرآن» في العالم على أكمل وجه، طيلة عصور الإسلام الذهبية. بينما كان غير المسلمين لا يزالون يغِطّون في نومهم العميق، سادرين في ليل الجهالة البهيم، تحت وطأة عصورهم المظلمة «الوسطى» ﴿**وَمَنْ كَانَ ميتاً فأَحْيَيْنَاهُ ثُمّ جعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ في النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُّلُمَاتِ ليْسَ بَخارِجٍ مِنْها**﴾ (الأنعام، 122). إلا أن الفكر الإسلامي المستمد من القرآن السَّمْح الكريم لم يقتصر على إنارة زوايا العالم الإسلامي بما ابتكره من علوم وفنون إسلامية النشأة والطابع، بل فتح الباب في وجه جميع الوافدين عليه من غير المسلمين، ومكّنهم من أسرار العلم الإسلامي والحضارة الإسلامية دون حذر أو تحفّظ، فارتَووا من معينها وشربوا من كأسها حتى الثّمالة، وعادوا إلى بلادهم يبثّون فيها نفائس العلم الإسلامي ومحاسن الحضارة الإسلامية، مع تكييفها كلّها بما يلائم بيئتهم الخاصة. وكان ذلك بداية النهضة الغربية التي واصلها الغربيون دون انقطاع، حتى أصبح لهم في حضارة هذا العصر باع طويل وأيّ باع ﴿**كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاَء مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُورا**﴾ (الإسراء، 20).

ونظراً لتوقّف المدّ الإسلامي في عالم الفكر والمعرفة فترة من الزَّمن - لعوامل داخلية وخارجيّة - واستمرار الزّحف العلمي في الغرب بعد ذلك، ولا سيّما في القرنين

الأخيرين، أصبح الكُتّاب الغربيون يعيِّروننا بأن نهضة العلم الحديث لم يساهم فيها المسلمون أدنى مساهمة، وأنها لا تَدين لهم بشيء، كأن العلم الحديث وقفٌ على الغربيين وحدهم، أو كأن المسلمين مُسِخوا فلم تعد لهم قدرة على خوض هذا المجال، وإن كان أولئك الكتاب أنفسهم يعترفون الآن بأنّ العلم ـ قبل النهضة الغربية ـ كان إسلاميا، ومن العالم الإسلامي انتقل إلى الغرب، وقد أدّى توقف العبقرية الإسلامية عن مواصلة الإنتاج والابتكار في هذا المضار، بالمحجوبين عن رسالة القرآن والجاهلين بها، إلى أن أصبحوا يتساءلون فيما بينهم وبين أنفسهم ـ إن لم يصارحوا غيرهم بذلك ـ هل أن رسالة القرآن التي كانت مبعث الحضارة الإسلامية العالمية، ومصدر الفكر العلمي الإسلامي خلال عدّة قرون قد استنفذت أغراضها، ولم يعد لها من اللّمعان والإشراق وقوة الدفع الخلاّق ما يحرِّك العقول والأفكار، وينير البصائر والأبصار ؟.

لذلك أصبح لزاما علينا أن نلقي الأضواء على رسالة القرآن الخالدة في مجال العلم والكون، بوصفها جزءا لا يتجزّأ من معجزة القرآن الباقية أَبَدَ الدّهر، والمتجَدّدة بما يناسب العصر في كلّ عصر، وأن نكشف السِّتار عمّا تحمله هذه الرسالة في ثناياها من عناصر القُوّة الذاتية، وما تزخر به من طاقات حيَّة تجعلها قادرة في كلّ وقت على الإلهام والتوجيه في مختلف الميادين الفكرية والعلمية، بالإضافة إلى ما تتمتع به من حصانة ومناعة تجعلها قادرة على الصمود في وجه الزوابع والأمواج مهما كانت عاتية. وفي ذلك تنبيه لعُشّاق الحقّ وأنصار الحقيقة إلى الدّور العظيم الذي ينتظر أن تقوم به «رسالة القرآن» في هذا العصر المدعو عند كثيرٍ من النّاس بـ «عصر العلم» وفيما بعده من العصور، لصالح الإسلام والمسلمين، ومنفعة الناس أجمعين.

إن كتاب الله يتوفّر على أساليب قرآنية فريدة، ومسالك للكشف عن الحق والحقيقة عديدة وحميدة، سلكها وتوسّل بها ـ ولا يزال ـ إلى أداء رسالته وتبليغها في هذا المجال ـ مجال الكونيات والعلميات ـ فمن الواجب إذن لفتُ الأنظار إليها، وتسليط

الأضواء عليها، عَسَى أن تتحرك الهِمَم وتنهض العزائم من جديـد، لاستيئنـاف الـدّور المنوط بالإسلام، والقيام به أحسن قيام، في ساحة الحضارة الحـديثـة والعلم الحـديث، فيعود العلم في ظل القرآن، وبتوجيه منه، إسلامياً عالمياً،يساهم فيـه المسلمون مسـاهمـة فعـالـة كما كانـوا في سـابـق الـزمـان، ووقتئـذ نفـوز في الامتحـان، ونكسب الرّهـان ﴿**ويومئـذ يَفْرَحُ المَومنون بنَصْرِ اللـه**﴾ (الروم، 4). ﴿**يـوم لاَ يُخْـزي اللَّـه النَّبِـيء والذين آمنوا مَعَـهُ نورُهُم يَسْعَى بينَ أيْـدِيهِم وبـأَيْمَـانِهِم يقُولون ربَّنَا أَتْمِم لنَا نُورنا واغْفِرْ لنَا إنَّكَ على كلّ شيء قدير**﴾ (التحريم، 8).

والآن، فلنشرع على بركـة اللـه في المـوضـوع، ملتزمين في عرضنـا طـريقـة الإيجـاز والاقتضاب. بدَلاً من التفصيل والاستيعاب، مقتصرين على ما تدعو إليه الحاجة من شواهد معدودة، ونماذج محدودة، تاركين تفاصيل هذا البحث القرآني الجديد، إلى حين نشرهـا في كتـاب جـامع مفيـد، مؤملين إذا فسَحَ اللـه في الأجل أن تسعـدنـا الأيـام بتقديمه هدية إليكم في إحدى المناسبات التاريخية الإسلاميـة، سـائلين اللـه تعـالى أن يعصمنا من الزلل، ويوفقنا لسدِيد القول وصالح العمل.

وفيما يلي بعض الحقائق التي استخلصناها في هذا الموضوع من كتاب الله.

- وبعض الحقائق التي استخرجناها من تضاعيفه وثناياه.

أولا : إن القرآن العظيم هو أوّل كتاب إلهي دعا الإنسان دعوة مُلحّـة ومتواصلـة إلى مائدة العلم، وأغراه بالجلوس على بساطها، وتناول غـذائـه الكامل منهـا. وللوصول إلى هذه الغاية استعمل كلّ الوسائل النافعة، والأَساليب الناجعة، الملائمة لطبيعة الإنسان وتكوينه المادي والرُّوحي، وفي طليعة تلك الوسائل والأساليب :

1 ـ إثارة ما هو كامن في الإنسان من غريزة حبِّ الاستطلاع.
2 ـ إثارة ما هو مجبول عليه من حب التظاهر بالعلم، والتمكن من المعرفة، وكراهية الجهل.

3 ـ إثارة ما فيه من حب لذاته، وحرص على استمرار نوعه، وسعي إلى التوسُّل بجميع الوسائل لقضاء مآربه وتحقيق مصالحه، وتعريفه بأن الأشياء التي يطالبه القرآن بالنظر فيها، وتتبع أطوارها إنما هي مخلوقة من أجله، ومسخرة لمنفعته، وأن الغاية المباشرة منها هي توفير كل ما يحتاج إليه من ضروريات وحاجيات وكماليات.

ولم ينتظر كتاب الله أن تمرَّ العصور تِلْوَ العصور على الإنسان، حتى تتحرك فيه ـ من تلقاء نفسه ـ غريزة حب الاستطلاع، وما ارتبط بها من الدوافع الأُخرى، بل إنه أثارها وحرّكها في الإنسان، منذ اليوم الأول من نزول القرآن، وخصَّص لما عالجه من كونيات وعلميات أكثر من ربع آياته البينات.

فمن شواهد الأسلوب الأول : قوله تعالى في سورة لقمان (29) :
﴿ألم تَرَ أنَّ الله يُولجُ اللّيلَ في النَّهارِ ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْل﴾.

وقوله تعالى في سورة الفرقان، (45) ـ مكية :
﴿أَلَمْ تَرَ إلى ربِّك كَيْفَ مدَّ الظِلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾

وقوله تعالى في سورة النور، (43) ـ مدنية :
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثمَّ يَجْعَلُه رُكَاماً﴾.

وقوله تعالى في سورة الحج، (63) ـ مدنية :
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضَ مُخْضَرَّةً﴾.

وقوله تعالى في سورة الزمر، (21) ـ مكية :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾.

ومن شواهد الأسلوب الثاني : قوله تعالى في سورة الزمر، (9) ـ مكية :

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ والذينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى في سورة الأنعام، (50) ـ مكية :

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى والبَصِير أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى في سورة الانفال، (22) ـ مدنية :

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ البُكْمُ الذينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى في سورة المجادلة، (11) ـ مدنية :

﴿يَرْفَعُ اللَّه الذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ والذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

وقوله تعالى في سورة يوسف، (76) ـ مكية :

﴿نَرْفَعُ دَرَجَات مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمْ﴾.

وقوله تعالى في سورة العنكبوت، (43) ـ مكية :

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُونْ﴾.

وقوله تعالى في سورة طه، (114) ـ مكية :

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾.

ومن شواهد الأسلوب الثالث : قوله تعالى في سورة عبس، (24 ـ 32) :
﴿فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إِلَى طَعامِهِ إِنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وأَبّاً مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾.

وقوله تعالى في سورة يس، (33 ـ 35) :
﴿وآيَةٌ لَهم الأَرْضُ المَيّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَاكُلُون وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العُيُونِ لِيَاكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِم أَفَلاَ يَشْكُرُونْ﴾.

وقوله تعالى في سورة النازعات، (30 ـ 31) :
﴿والأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا ماءها وَمَرْعَاهَا والجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾.

وقوله تعالى في سورة يس، (71 ـ 73) :
﴿أَوَلَمْ يَرَواْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَاكُلُونْ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِع وَمَشَارِب أفَلاَ يَشْكُرُون﴾.

وقوله تعالى في سورة ق، (8 ـ 9 ـ 10) :
﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وحَبَّ الحَصِيدِ والنَّخْل بَاسِقَات لَهَا طلْع نَضِيد رِزْقاً لِلْعِبَاد﴾.

وقوله تعالى في سورة فاطر، (12) :
﴿وَمَا يَسْتَوِي البَحْران هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَاكُلُونَ لَحْماً طَرِيّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونْ﴾.

ثانيا : إن كتاب الله جَرَت سُنّته في نظم آياته البيّنات على أن يبرز بشكل قوي مشاهد الكون وظواهر الطبيعة، ويجذب نحوها البصائر والأبصار، بل على أن يضعها غير ما مرة في مكان الصَّدارة، ويخصها بالأولوية والأسبقية في غير ما آية، وذلك كلَّما أراد توكيد معنى خلقي، أو تقرير مبدأ اعتقادي من أصول الدين، وكثيراً ما يجدّد الحديث عن نفس المشاهد والظواهر في عدة آيات وعدة سور مكيّة ومدنيّة، هذا مع أن المومنين الذين أُنزل عليهم القرآن لا يكذّبون بآياته، ولا يشكّون في تعاليمه وتوجيهاته، وفي إمكانه أن يعرض عليهم حقائقه ورقائقه رأساً دون تمهيد ولا مقدّمات، ودون حاجة إلى تدعيمها بالمشاهد الكونية، والظواهر الطبيعيّة.

وما دام كتاب الله مُنزَّهاً عن اللغْوِ والحَشْو والتكرار ـ إذ هو مُنزَّه عن كلّ نقص ـ وما من كلمة من كلماته، أو حرف من حروفه، إلاّ ووراءه سِرّ دَفِين وحكمة بالغة، فقد أصبح لزاماً على الذهن الفاحص أن يتلمَّس الحكمة في ذلك، مستنداً إلى ما يقتضيه المقام، ويدل عليه السِّياق، وهو أنّ كِتاب الله أراد أن يجعل الكون الذي هو «صُنع الله» حاضراً أمام المومنين دائماً في ثَنايا ما يتلوه عليهم من «كلام الله» حتى يرتبط الإنسان بالكَوْن الذي هو جزء منه ارتباطاً مُحكماً وثيقاً، وحتى يَمتدّ بينه وبين العالم من حوله جِسر متين من الأُلْفة والاندماج يؤدي بهما إلى التعارف والتكاتف، والتقارب والتجاوب، والأَخذ والعطاء لِخَيْر الدُّنيا والدِّين.

ومن شواهد هذا الأسلوب المتبع في القرآن الكريم قولُه تعالى في سورة يونس، (5 ـ 6) ـ مكية :

﴿هو الذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَّاءً والقَمَرَ نُوراً وَقَدرَهُ مَنَازِلَ لَتعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَاب ما خَلَقَ الله ذلك إلاّ بالحَقّ يُفصّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون إنّ في اخْتِلافِ اللّيل والنَّهار وَما خَلَقَ اللّه فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ لآيات لِقَوْم يتّقُون﴾.

وقوله تعالى في نفس السورة، (67) :

﴿هُوَ الذِي جَعَلَ لَكُم اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ والنَّهَارَ مُبْصِراً إنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لِقَوْمٍ يَسْمَعُون﴾.

وقوله تعالى في سورة الرعد، (3 ـ 4) ـ مدنية :

﴿وَهُوَ الذِي مَدَّ الأَرْضَ وجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يغشي اللَّيل النَّهَار إن فِي ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الأَرض قطع مُتَجاوِرَات وَجَنَّاتٍ من أَعْنَاب وَزَرع وَنَخِيل صنوَان وَغَيْر صنوان تُسْقَى بماءٍ واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إنَّ في ذلك لآيات لقَوْم يَعْقِلُون﴾.

وقوله تعالى في سورة الحجر، (19 ـ 22) مكية :

﴿والأَرض مَدَدْنَاهَا وأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُون وَجَعَلْنَا لَكُمْ فيها مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِين وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ عِنْدَنَا خزَائِنه وَمَانُنْزِلُه إلاَّ بقَدَر معلوم وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا من السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوه وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ وإنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُميتُ وَنَحْنُ الوَارِثُونْ﴾.

ثالثا : إنَّ كتاب الله عندما تَصدَّى للدعوة إلى دينه الحَقّ، والكشف عن عقيدته المُثلى لم يستعمل من الحجج للدّلالة على صِدق دعوته وسلامة عقيدته ـ رغم تعدّد أجْناس الحُجج وكثرة أنواعها ـ إلاَّ الحُجج المنتزعة من مشاهد الطبيعة وظواهر الكون، فهي وحدها التي وقع عليها الاختيار الإلهي، فأصبحت السند الأول للاحتجاج والاستدلال في جوهر العقيدة وصميم الدين. وما دام كتاب الله قد اختار أن ينتزِع من مشاهد الطبيعة وظواهر الكون دلائله القاطعة، وبراهينه السّاطعة، على عقائد الدين وحقائقه الأولى، ويعتمد عليها في الإقناع والاقتناع، نظراً لصدق

محتواها، وثبوت فحواها، وكونها على طرف الثمام، ليس عليها أي حجاب أَوْ لِثام، فقد أصبح لزاماً علينا أن نولي وجهنا أَوّلاً نحو تلك المشاهد والظواهر، وأن نكشف السِّتار، عما في الطبيعة والكون من أَسرار، فتلك هي الخطوة الطبيعية التي يرشدنا كتاب الله إلى أن نخطوها في البداية، لنصل منها إلى الإيمان بأصول الدين في النهاية، إذ لا سبيل عند الإنسان، لفهم أيِّ مدلول كان، إلاَّ إذا تمكَّن بادئ ذي بدأ من فهم مضمون الدليل المعروض على نظره فهماً تامّاً، وأدرك وجه دلالته على مدلوله إدراكاً شاملاً وعامّاً. وبهذا علَّمنا كتاب الله أنَّ العلم طريق إلى المزيد من الإيمان، وأن الإيمان وسيلة إلى المزيد من العلم، ونبّهنا إلى أنَّ بين العلم والإيمان مُزَاوَجَةً تكادُ تكون مزاوجة عضوية لا يتخلف عنها أحد الطرفين بحال : ﴿**لَخَلْـق السماوَاتِ والأَرْض أَكْبَر من خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِن أَكْثَر النَّـاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ (غافر، 57). ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى الله من عِبَادِهِ العُلَمَاء**﴾ (فاطر، 28).

ومن شواهد الطّريقة القرآنية للاستدلال على وجود الباري سبحانه قوله تعالى في سورة النبأ (6 ـ 16) ـ المكية :

﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً والجِبَالَ أَوْتَاداً وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً وجعلنا النَّهَارَ مَعَاشاً وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً وَأَنْزَلْنَا مِنَ المُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَباتاً وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً**﴾.

وقوله تعالى في سورة الفرقان، (61 ـ 62) ـ مكية :

﴿**تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً وَهُوَ الذِي جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يذكر أَوْ أَرَادَ شُكُوراً**﴾.

وقوله تعالى في سورة فاطر، (9) ـ مكية :

﴿**والله الذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُور**﴾.

وقوله تعالى في سورة ق، (11) ـ مكية :

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجْ﴾.

وقوله تعالى في نفس السورة، (13) :

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجل مُسمَّى ذَلِكُم الله رَبُّكُم له المُلْك والذِين تَدْعُونَ مِنْ دُونِه مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرْ﴾.

وقوله تعالى في سورة الجاثية، (3 ـ 6) مكية :

﴿إِنَّ فِي السَّمَاواتِ والأَرْض لآيات للمُومنين وفي خَلقِكُم وَما يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَات لِقَوم يُوقِنون واخْتِلاف اللّيل والنهار وما أنزل الله من السَّماء من رزق فَأَحْيَا به الأَرض بعد مَوْتِهَا وتَصْرِيف الرّياح آياتٍ لقوم يعقِلُون تلك آيات الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّه وآيَاتِه يُومِنُون﴾.

رابعا : إن كتاب الله لم يكتف بأن يتخذ من مشاهد الكون وظواهر الطبيعة حُجَجه المفضّلة للاستدلال على عقائد المِلّة وحقائق الدّين، بل رفع تلك الظواهر الكونية فوق ذلك مكاناً عَليّا، حيث استفتح بها عدَّة سور قرآنية، وجعلها موضوع قسَمٍ ويَمِين باسم الذات العلية، نظراً لما تمثله تلك الظواهر من عظمة خالقها، وحكمة مكوّنها ومدبّر أمرها، إذ «الدلائل السماوية ـ كما قال فخر الدين الرازي ـ أقْهر وأَبْهر، والعجائب فيها أكثر، وانتقال القلب منها إلى عظمة الله وكبريائه أشدّ وأكبر».

وواضح أنّ الله تعالى غَنِيّ عن كل قَسَم ويمين، سواء كان القسم بذاته، أو القسم بمصنوعاته **﴿وتمَّت كَلِمَتُ ربّك صِدْقا وعَدْلا﴾** (الأنعام، 115). **﴿ومَنْ أصدَق مِنَ الله قِيلا﴾** (النساء، 122). كما أنّ المخاطبين من البشر لا يعدو حالهم أن

يكونوا بين مصدِّق ومكذِّب، فالمُصدّق يُصدِّق بغير قَسم، والقَسم بالنّسبة إليه لا يزيد عن كونه مجرَّد تأكيد. أما المكذّب فلا يصدِّق ولَوْ مع القسم، وإذن فلا شكَّ أن وراء استعمال هذا الأسلوب ـ أسلوب القسم في كتاب الله ـ حكما الهية، وأسرارا ربَّانية، أقربها إلى الأذهان أن تصبح تلك الظواهر الكونية المُقْسَم بها مَحَطَّ الأنظار، ومحلّ التدبُّر والاعتبار، حتى يصبح الكون وما حواه مألوفاً لَدَينا، قريباً منّا، وحتى يكون موضوع درس وبحث من جانبنا، بحيث يستأثر باهتمامنا، ولا يغيب أمره عنّا. وبديهي أنَّ أَهميّة الشيء المقسم عليه لا تتجلّى إلاَّ من خلال التعرُّف على حقيقة الشيء المقْسَم به، فبمعرفة الشيء المقسم به معرفة تؤدي إلى المزيد من الاقتناع، يثبت الشيء المقسم عليه ويسلم من كل نزاع، إذ بذلك ينتقل الفكر من الدليل إلى المدلول، وتطمئن النفوس والعقول.

وعندما نستقرئ كتاب الله بحثا عن الظواهر الكونية التي أقسم بها :
نجده أقسم بالسماء والأَرض : ﴿**والسماءِ ذات الحبك**﴾ (الذاريات، 7). ﴿**والسماء ذاتِ البُروج**﴾ (البروج، 1). ﴿**والسَّقْفِ المرفُوع**﴾ (الطور، 5). ﴿**والسَّماءِ وما بَنَاها والأَرض وما طَحَاهَا**﴾ (الشمس، 5).

ـ ونجده أقسم بالشمس والقمر : ﴿**والشَّمسِ وضُحَاها والقَمَرِ إذا تَلاهَا**﴾ (الشمس، 1). ﴿**والقمر إذا اتَّسَقَ**﴾ (الانشقاق، 18). ﴿**كلاَّ والقَمَر**﴾ (المدثر، 32).

ـ ونجده أقسم بالليل والنهار والشفق : ﴿**والليل إذا يغشى والنّهار إذَا تجلّى**﴾ (الليل، 1). ﴿**والنّهار إذا جَلاهَا والليل إذا يَغْشاها**﴾ (الشمس، 4). ﴿**والليل وما وَسَق**﴾ (الانشقاق، 17). ﴿**والليل إذَا أَدبر**﴾ (المدثر، 33). ﴿**والليل إذَا سَجَى**﴾ (الضحى، 2). ﴿**والليل إذَا عَسْعَسَ**﴾ (التكوير، 17). ﴿**والليل إذَا يَسْرِ**﴾ (الفجر، 4). ﴿**فلا أُقسِم بالشَّفَق**﴾ (الانشقاق، 16).

ـ ونجده أقسم بالفجر والصُّبح والضُّحى : ﴿**والفجر ولَيالٍ عشر**﴾ (الفجر 2). ﴿**والصُّبح إذا تنفَّسَ**﴾ (التكوير، 18). ﴿**والصّبْح إذا أَسْفَرَ**﴾ (المدثر، 34). ﴿**والضُّحَى**﴾ (الضحى 1).

ونجده أقسم بالنجوم : ﴿**فلا أقسم بِمَوَاقِع النُّجُوم**﴾ (الواقعة، 75). ﴿**فلا أُقسِمُ بالخُنَّسِ الجَواري الكُنَّسِ**﴾ (التكوير، 15). ﴿**والنَّجْم إذا هَوَى**﴾ (النجم، 1). ﴿**والسَّماءِ والطَّارق**﴾ (الطارق 1).

ونجده أقسم بالبحر والرّياح والسُّحب : ﴿**والبَحْر المسجور**﴾ (الطور، 6). ﴿**والمُرْسَلات عُرْفاً فالعَاصِفَاتِ عَصْفاً، والنَّاشِرَاتِ نَشْراً، فالفَارِقَاتِ فرقا**﴾ (المرسلات، 1). ﴿**والذَّارِياتِ ذرواً فالحاملاتِ وِقْراً، فالجَارِيات يسراً، فالمقسمات أمراً**﴾ (الذاريات، 1 ـ 2 ـ 3 ـ 4).

ونجده أقسم بالعصر : ﴿**والعصر إن الإنسان لفي خُسر**﴾ (العصر، 2).

ونجده أقسم بالنَّفْس الإنسانية : ﴿**ونَفْسٍ وما سوَّاها**﴾ (الشمس، 7). ﴿**ولا أقسم بالنّفس اللّوامَة**﴾ (القيامة، 2). ﴿**وما خَلَقَ الذَّكر والأُنثى**﴾ (الليل، 3).

ونجده أقسم بالشفع والوتر : ﴿**والشَّفْعِ والوَتْر**﴾ (الفجر، 3).
ونجده أقسم بالشاهد والمشهود : ﴿**وَشاهِدٍ ومَشْهُود**﴾ (البروج، 3).
ونجده أقسم بما نُبصر وما لا نبصر : ﴿**فلا أُقسِم بما تُبصِرون وما لا تُبصرون**﴾ (الحاقة، 38).

وأما المُقسَمُ عليه ـ وهو جواب القسم في هذه الأَقسام ـ فأحياناً يكون ـ إثبات التوحيد، كقوله تعالى : ﴿**إنَّ إلاهكم لَوَاحِدٌ**﴾ في سورة الصَّافَّات.

ويكون أحياناً إثبات المعاد والجزاء، كقوله تعالى : **﴿إن مَا تُوعدون لَصَادِق وإن الدِّين لَوَاقِعٌ﴾** في سورة الذاريات، وقوله تعالى : **﴿إنَّ ما توعدون لواقع﴾** في سورة المرسلات، وقوله تعالى : عن قيّام السَّاعة ونارِ جهنم **﴿إنها لإحْدَى الكُبَر نذيراً للبشر﴾** في سورة المدثر.

ويكون أحياناً إثبات عصمة الرسول وصدقه، كقوله تعالى : **﴿ما ضَلَّ صاحبُكم ومَا غَوَى﴾** في سورة النجم، وتكذيب مزاعم المشركين ضدّه كقوله تعالى : **﴿ما وَدَّعك رَبُّك وما قَلَى﴾** في سورة الضحى.

ويكون أحيانا التنويه بمكانة القرآن وأنه مُنَزَّل من عند الله، كقوله تعالى : **﴿إنه لقرآن كريم﴾** في سورة الواقعة، وقوله تعالى : **﴿إنه لَقَوْلُ رسولٍ كريم﴾** في سورة الحاقّة.

ويكون أحيانا تنبيه الإنسان إلى ما يتقلَّب فيه من الحالات وما يتخذه من المواقف كقوله تعالى : **﴿إن سعيكم لشتّى﴾** في سورة الليل، وقوله تعالى : **﴿إن الإنسان لَفِي خُسر﴾** في سورة العصر، وقوله تعالى : **﴿إن الإنسان لربّه لَكَنود﴾** في سورة العاديات، وكقوله تعالى : **﴿لَتَرْكَبُّن طبقاً عن طبق﴾** في سورة الانشقاق، وقوله تعالى : **﴿إنْ كلّ نفس لَمَا عليها حَافظ﴾** في سورة الطارق، وقوله تعالى : **﴿قد أَفْلَحَ من زكَّاها وقد خاب من دسّاها﴾** في سورة الشمس.

خامسا : إنَّ كتاب الله عندما يأخذ في عرض آياته الكونية لا يعرضها منعزلة مقتضبة، بل يعرضها مصحوبة بتنبيه سابق، أو تعقيب لاحق، ويقدمها للنوع الإنساني محفوفة بأسلوب فريد لا يكاد يفارقها بحال.

فهي في نظامه الخاص إما أن تأتي مسبوقة بصيغة الأمر بالنّظر (انظروا) أو بما يفيد مجرد الحضّ على النظر ﴿**أَفَلاَ يَنْظُرون ـ أَوَلَمْ يَنْظُروا**﴾ (الغاشية، 17، الأعراف، 185).

وأما أن تأتي متبوعة بالنتائج التي تترتب على النظر، من تفكُّر وتذكُّر وتدبُّر واعتبار ﴿**فانظُرْ إلى آثارِ رحمةِ الله كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِها**﴾ (الرُّومْ 50).

وأما أن تأتي مسبوقة بالوسيلة التي هي النظر، ومتبوعة بالغاية المتوخاة من النظر في آن واحد، ولا شك أن هذه الأساليب كلها تلتقي حَول نقطة واحدة هي الإغراء بمحاولة الكشف عن خصائص الطبيعة والتعرف على آثارها ومنافعها، واستخلاص العبرة منها.

1 ـ مثال الأمر بالنظر قوله تعالى في سورة يونس، (101) :﴿**قل انظروا ماذا في السماوات والأرض**﴾. ومثال الحضّ على النظر قوله تعالى في سورة الأعراف، (185):﴿**أولَم ينظروا في ملكُوت السّماوات والأرض وَمَا خلَق الله من شيء**﴾ وقوله تعالى في سورة سبأ، (9) :﴿**أفلم يَرَوْا إلى مَا بَيْنَ أَيْدِيهم وَمَا خَلْفَهُم من السَّماء والأرض**﴾.

2 ـ ومثال التنبيه إلى نتائج النظر قوله تعالى في سورة ق، (8):﴿**وأَنْبَتْنَا فِيهَا من كُلِّ زَوْجٍ بَهِيج تَبْصِرَةً وَذكْرَى لِكُلِّ عبدٍ مُنِيب**﴾. وقوله تعالى في سورة الحشر، (2):﴿**فاعْتَبِروا يا أُولِي الأَبْصَار**﴾. وقوله تعالى في سورة النحل في آيات متوالية (11 ـ 17) : ﴿**إنَّ في ذلك لآية لقوم يتفكَّرون ـ إنَّ فِي ذلك لآيات لقوم يَعْقِلُون ـ إن في ذلك لآية لقوم يَذكَّرُون**﴾.

3 ـ ومثال الجمع بين الوسيلة والغاية : النظر أولاً، والاعتبار أخيراً، قوله تعالى : في سورة الأنعام، (65) : ﴿انظر كيْفَ نُصَرِّفُ الآيات لعَلَّهُم يَفْقَهُون﴾ وقوله تعالى في سورة آل عمران، (191) : ﴿ويتفكَّرونَ في خَلْقِ السّماوات والأَرض ربَّنَا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً سُبْحَانَك﴾ وقوله تعالى : في سورة الأنبياء، (30) : ﴿أولَمْ يَرَ الذين كفروا أنَّ السماوات والأَرض كانَتَا رتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وجعلنا من الماءِ كُلَّ شيءٍ حيّ أَفَلا يُومنون﴾ وقوله تعالى في سورة النور، (44) : ﴿يقلِّبُ الله الليل والنهار إنَّ في ذلك لعِبْرَة لأُولِي الأبصار﴾. وقوله تعالى : في سورة لقمان، (31) : ﴿ألم تَرَ أَنَّ الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليُرِيكُم مِنْ آياتِه﴾. وقوله تعالى في سورة ق، (7 ـ 8) : ﴿والأَرض مدَدْناها وأَلقَيْنَا فيها رواسِيَ وأَنْبَتنا فيها من كلّ زوجٍ بهيج تَبْصرة وذكرى لكلِّ عبد منيب﴾.

سادسا : إن كتاب الله عندما دعا الإنسان إلى النظر في «ملكوت» السماوات والأرض وما خلق الله من شيء «لم يكن من المعقول ولا من المنتظر أن يكتفي منه بالنظرة الخاطفة، والرؤية العابرة، والنظر السطحي البسيط، كمن يكتفي من الكتاب برؤية جلده الظاهر، والاعجاب بشكله الفاخر، دون أن يعرف أي شيء مما في باطن الكتاب من الحكمة والعلم، ودون أن يذوق له أي طعم، لأن ملكوت الله، بما يحتوى عليه من بدائع الصنائع أجلّ وأكبر، وأسمى وأخطر، من أنْ يلمّ به النظر القاصر، والفكر العابر.

وإذا كان الإسلام ـ بوصفه دين السماحة واليسر ـ يكتفي من عوام الناس، بما تشاهده العين المجردة، وتلهمه الفكرة الساذجة، من إيمان «كإيمان العجائز»، فإن مَنْ هُم فوق هذا المستوى من الخواصّ لا يقبل الله منهم إلا النظر النافذ الدقيق، والفكر العميق، واستعمال كافة المواهب والملكات، واستثمار جميع الإمكانات، لاستجلاء آياته

البينات في كتاب الكون العظيم وكتابه الكريم، وبذلك وحده يستطيع الإنسان أن يصرخ من أعماق قلبه وقد تملى من النظر في عجائب الكون والإعجاب بها قائلا، تمجيداً لله وتقديسا : ﴿**ربَّنا ما خَلَقْتَ هذا بَاطِلاً سبحانك**﴾ (آل عمران، 191).

وتيسيرا للإنسان، سبل الخوض في هذا الميدان على بصيرة من أمره، لم يتركنا كتاب الله مكتوفي الأيدي، بل علَّمنا ما لم نكن نعلم ﴿**ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علِم**﴾.(الاعراف، 52)، وأرشدنا إلى الكيفية الصحيحة التي يتمّ بها النظر، ضارباً لنا الأمثال، ومقدما لنا النماذج ضمن آياته البينات :

أولا : عرفنا بوسيلة النظر ـ وهي العقل والحواس.

ومن شواهدها قولُه تعالى:﴿**والله أخرجكم من بُطون أُمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السَّمع والأبصارَ والأَفئدة لعلكم تشكرون**﴾(النحل، 78) - والأفئدة هنا جمع فؤاد، وهو في لغة القرآن : العقل الذي يفقه به الإنسان حقائق الأمور، وقولُه تعالى : ﴿**ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا**﴾(الاسراء، 36). وقوله تعالى : ﴿**قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون**﴾ (الملك، 23). وقوله تعالى : ﴿**وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله**﴾ (الأحقاف، 26).

ثانيا : عرفنا بموضوع النظر ـ وهو الكون كله بجميع ما فيه من الكائنات، ومن شواهده قوله تعالى : ﴿**أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأَرض وما خلق الله من شيء**﴾ (الأَعراف، 185). وقوله تعالى : ﴿**وفي الأَرض آيات للموقنين**

وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ (الذّاريات، 21). وقوله تعالى : ﴿**أولَمْ يتفكروا في أنفسهم﴾** (الروم، 8). وقوله تعالى : ﴿**قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تُغْني الآيات والنُّذر عن قَوم لا يُومِنون﴾** (يونس، 101)، أي انظروا أيّ شيء فيهما، فهناك شيء غامض بالنسبة لكم لابد من كشف الستار عنه وتجليته، وتعميم معرفته، ولم يقل «انظروا السماوات»، فالنظر إلى الشيء هو غير النظر في الشيء.

ثالثا : عرفنا بطريقة النظر، وقدم لنا عدة نماذج من هذه الطريقة.

أ ـ النوذج الأول: مِمَّ خُلق ؟ ومن شواهده قوله تعالى : ﴿**فلينظُرِ الإنسان مِمَّ خُلق خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافق﴾** الآية.(الطارق، 5 ـ 6).

ب ـ النوذج الثاني: كيف خُلِق ؟ ومن شواهدها قوله تعالى : ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبِلِ كيف خُلِقَتْ وإلى السّماء كيف رُفِعَتْ وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾** (الغاشية، 17 ـ 20). وقوله تعالى : ﴿**أفلم ينظروا إلى السّماء فوقَهُم كَيْفَ بنَيْنَاهَا وزَيَّناهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوج﴾** (ق، 6).

ج ـ النوذج الثالث : كيف بدأ الخلق ؟ ومن شواهده قوله تعالى : ﴿**أَوَلَمْ يَرَوا كيف يُبدئ الله الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه﴾** (العنكبوت، 19). وقوله تعالى : ﴿**قُلْ سِيروا في الأرض فانظُروا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ﴾** نفس السورة (20).

د ـ النوذج الرابع : كيف تطوّر الخلق ؟ ومن شواهده قوله تعالى : في وصف الأطوار التي تسبق نزول المطر ﴿**ألم تر أن الله يُزْجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الوَدْق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال**

فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عَمَّنْ يَشَاء يَكَادُ سَنَا بَرْقِه يذهب بالأَبْصَار﴾ (النور، 43 ـ 44). وقوله تعالى في وصف أطوار الجنين: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرارٍ مَكِين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العَلَقَة مُضغة فخلقنا المُضغة عِظاما فَكَسَوْنَا العظام لحماً ثمَّ أنشأناه خلقا آخر فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَن الخَالقين﴾ (المومنون، 12 ـ 14). وقولُه تعالى في وصف أطوار العمر ﴿هُوَ الذي خلَقَكُم من تُرَابٍ ثمَّ من نُطْفَةٍ ثم من عَلَقَة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبْلُغُوا أَشُدَّكُم ثم لتكُونُوا شيوخاً ومنكم من يُتَوفَّى من قبل ولِتَبلغوا أجلاً مُسمّىً ولعلَّكم تَعْقِلُون﴾ (غافر، 67). وكذلك قوله تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضُعْفٍ ثم جَعَلَ من بعد ضُعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبةً يَخلُق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ (الروم، 54).

رابعا: عَرَّفنا بالغاية المتوخّاة من النظر ـ أَلا وهي نفع الإنسانية، وتمجيد الربوبية، فقد جعل معرفة الكون وسيلة لتسخيره لمنفعتنا، وسبيلاً قاصداً لِمعرفة ربّنا، ومن شواهد هذه الغاية السامية بالنسبة لمنفعتنا قوله تعالى: ﴿أولَمْ تروا أَنَّ الله سخّر لكم ما في السماوات وما في الأَرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنةً﴾ (لقمان، 20). وقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلاَّ هو فَأَنَّى توفكون﴾ (فاطر، 3). ومن شواهد هذه الغاية السّامية بالنسبة لمعرفة ربّنا قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهمُ آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحقّ أوَلَم يكف بربّك أنه على كل شيءٍ شهيد﴾ (فصلت، 53). وقوله تعالى: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربّك فيومنوا به فتُخْبِتَ له قلوبهم وإن الله لهادِ الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ (الحج، 54). وقوله تعالى: ﴿هذا خلقُ الله فأروني ماذَا خلق الذين من دونه﴾ (لقمان، 11). وقوله تعالى: ﴿وإن إلى ربّك المنتهى﴾ (النجم، 42).

سابعا : إن كتاب الله عندما دَعَا الإنسان للنظر في شؤون نفسه وشؤون الكون المحيط به لم يكلّفه بما لا يطيق، بل دعاه إلى استعمال أَيْسَر الوسائل عنده، وألصقها به وهي الحواس والعقل، وندد بمن لا ينتبه إلى ما حوله، ومن لا يستعمل حواسه وعقله، بالغ التنديد، واعتبره في مستوى الأَنعام أو أشدّ، ومن شواهد هذا الموقف قوله تعالى : ﴿**وكأيِّنْ من آية في السماوات والأَرض يَمُرُّونَ عليها وهم عنها مُعْرِضُون**﴾ (يوسف، 105). وقوله تعالى : ﴿**وَمَا تاتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين**﴾ (يس، 39). وقوله تعالى : ﴿**إنْ هُمْ إلاَّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً**﴾ (الفرقان، 44). وقوله تعالى : ﴿**لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أَعْيُنٌ لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأَنعام بل هم أَضَلّ وأولئك هم الغافلون**﴾ (الأَعراف، 179).

ولم يقف كتاب الله عند هذا الحدّ، بل حرَّض الإنسان على أن يرفض كل ما لم يقم عليه دليل، وجعله أحقّ بالسخرية والاستهزاء إذا ارتضى لنفسه القناعة بمجرد الظنون والأَوهام، أو رضي لنفسه بالتقليد الأَعمى.

ومن شواهد هذه الحقيقة القرآنية قوله تعالى : ﴿**نبئوني بعلم إن كنتم صادقين**﴾ (الأَنعام، 143). وقوله تعالى : ﴿**وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم**﴾ (النور، 15). وقوله تعالى : ﴿**قُل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾ (البقرة، 111). وقوله تعالى : ﴿**ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه**﴾ (المومنون، 117). وقوله تعالى : ﴿**قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلاَّ الظَّن وإن أنتم لا تخرصون**﴾ (الأَنعام، 148). وقوله تعالى : ﴿**فلِمَ تُحَاجُّون فيما ليس لكم به علم**﴾ (آل عمران، 66). وقوله تعالى : ﴿**ومن الناس من يجادل في الله بغير علمٍ ولا هُدىً ولا كتاب منير**﴾ (لقمان، 20). وقوله تعالى : ﴿**وقالوا لو كُنَّا نسمع أو نعقل ما كُنَّا في أَصحاب السعير**﴾ (الملك، 10). وقوله تعالى : ﴿**وإنَّ كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم**﴾ (الأَنعام، 108).

وليبين كتاب الله مكانة الحجة والبرهان، وضرورة الاعتماد عليها وتأثيرهما البالغ في إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل أطلق عليهما لفظ «السُّلطان» في كثير من الآيات، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿**فأتُونا بسلطان مُبين**﴾ (ابراهيم، 10). وقوله تعالى : ﴿**لولا ياتون عليهم بسلطان بيِّن**﴾ (الكهف، 15). وقوله تعالى : ﴿**إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهُمْ إنْ فِي صُدُورِهِمْ إلاَّ كِبْرٌ ما هُمْ ببَالِغِيه**﴾ (غافر، 56). وقوله تعالى : ﴿**إنْ هي إلاَّ أسماء سمَّيتُموها أنْتُم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سُلطان**﴾ (النجم، 23). وقوله تعالى : ﴿**الذين يُجادلون في آيات الله بغير سُلطان أَتَاهُمْ كَبُرَ مقْتاً عند الله وعند الذين آمنوا**﴾ (غافر، 35). وإنما سَمَّى كتاب الله البرهان «سُلطاناً» لقوّته على دفع الباطل، كما سمَّى الأمير «سُلطاناً» لما يتمتع به عادة من قُوّة وقُدْرة على تَصْريفِ الشُّؤون العامّة، وصيّانة لحقوق الرعية وضبط لمصالحها، مما يجعله أَقْوَى ظهير للضّعيف وناصِر للمظلوم.

ثم إن كتاب الله كلما استعرض ظواهر الكون ومشاهد الطبيعة نبَّه الأَذهان إلى حقيقة كونية ثابتة سارية المفعول : أَلا وهي أنَّ لله سُنَناً في خلقه، ونواميس في كونه لا تتبدل ولا تتخلَّف، وتحتها تندرج الأَسباب والمُسبِّبات، والوسائل والمقاصد، والمُقدِّمات والنتائج، وفي ذلك تربية للفرد والجماعة على التفكير المنطقيّ السليم، والتقيّد بالنظام في السلوك والعمل، وتنفير من الاعتماد على الصُّدفِ والمُفاجآت، وتحصين ضِدَّ الفوضى الفكرية والحياة الخرافية. ومن نتائج تلك التربية القرآنية أن أَصبح كلُّ من يقرأ القرآن بتدبُّر ورَوِيَّة وفهم، لا يمكن أَن يَركُن إلى الخرافة والخيال والوهم. وبذلك توسَّل القرآن الكريم إلى تكوين «الأَمة العلمية» المثالية كبديل عن «الأمّة الأُميّة» الخرافية، التي عرفتها الجاهلية، إذ لم يبق لها مكان ولا مُبرِّر، بعدما أرسل الله إلى الناس رسولاً من أنفسهم، يعلِّمهم الكتاب والحكمة ويُزكِّيهم.

ومن شواهد هذه الحقيقة الكونية التي بشَّر بها كتاب الله قوله تعالى : ﴿**سُنّة من قد أرسَلْنا قبلكَ من رُسُلنا ولا نجد لسُنَّتنا تحويلا**﴾ (الإسراء، 77). وقوله

تعـالى : ﴿قـد خلَتْ من قبلكم سُنَن فسيروا في الأَرض﴾ (آل عمران، 137). وقولـه تعـالى : ﴿يُريـد اللـه ليُبيِّن لكم ويهـديكم سُنَنَ الـذين من قبلكم﴾ (النساء، 26). وقولـه تعـالى : ﴿سُنَّـة اللـه في الـذين خَلَوا من قَبْل ولن تَجِـدَ لسُنّة الله تبديلا﴾ (الأَحزاب، 62). وقوله تعالى : ﴿سنة الله في الـذين خلوا من قبل وكان أمر الله قَدَراً مَقْدُوراً﴾ (الأحزاب، 33). وقولـه تعـالى : ﴿فلن تجد لسُنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ (فاطر، 43).

ثامنا : إن كتاب الله عندما دعا الإنسان إلى النظر في نفسه وفي الكون المحيـط بـه لم يكن من المعقول أن يدعوه إلى النظر فيما هو خارج عن حدود طاقتـه، لأن ذلـك يُعدُّ من باب التكليف بما لا يُطاق، وإنمـا دعـاه إلى النظر فيما يتـأتى لـه النظر فيـه بـالوسـائل التي يتوفَّر عليهـا مِمّـا هـو داخـل في نطـاق استعـداده وقـدرتـه، ومُـلائم لتكوينه وطبيعته، وبذلـك فتح القرآن في وجـه الإنسـان ـ أيّ إنسـانٍ كَـانَ ـ بـاب البحث العلمي على مصراعيه دون تقييد ولا تحديد، أمّا إذا كان الأَمر فوق طاقتـه أَو لا يتوفَّر على وسائل معرفته، فإنه لا يدعوه إلى النظر فيـه أصلاً، أو يكشف لـه عن بعض ملامحـه بطريق الوحي والخبر، لا بطريق الفكر والنظر. ومن شواهـد الحـالـة الأُولى قوله تعالى في سورة (الإسراء، 85) : ﴿ويسـألونـك عن الرُّوح قل الروح من أَمر رَبِّي وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلا﴾. وقولـه تعـالى في سورة (يونس، 20) : ﴿فقل إنَّما الغيب لله﴾. ومن شواهد الحـالـة الثـانيـة قولـه تعـالى في سورة (هود، 44) : ﴿تِلك من أنباء الغَيْبِ نُوحِيها إليك ما كنت تعلمهـا أنت ولا قومـك من قبل هـذا﴾. وقولـه تعـالى في سورة (الجن، 76) : ﴿عـالِمُ الغيب فلا يظهر على غيبـه أحـدا إلاّ مَنِ ارتضى من رسول﴾. وقـولـه تعـالى في سـورة (آل عمران، 179) : ﴿ومـا كان اللـه ليُطلِعَكم على الغيب ولكن اللــه يَجْتَبِي مِنْ رُسُله من يشاء﴾.

ثم إن الأَمر بـالنظر والحضّ عليـه من قِبَل اللـه عـزَّ وَجـلَّ يتضمن الإذن للنـاظر في مواصلة النظر إلى النِّهاية، سواء أخطأ أم أَصاب، ما دام الأَمر يتعلَّق بمحاولـة تفسير

وتسخير ظواهر الكون والوجود، دون إنكار للخالق ولا جُحود، ونفس الأمر بالنظر يقتضي أن موضوع النظر غير محرم على الناس ولا محجُوب عنهم، إذ أن ما يريد الله أن يستأثر بعلمه لا يدعو الناس إلى النظر فيه، بل يوقفهم عند حدِّهم، ويُعرِّفهم بعجزهم، وهو سبحانه وحده الذي انفرد بكونه عالم الغيب والشهادة قال تعالى: **﴿قل لا يعلم من في السماوات والأَرض الغيبَ إلاَّ الله﴾** (النمل، 65). وقال تعالى: **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاَّ هُو﴾** (الأنعام، 59). وقال تعالى: **﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المُتَعَال﴾** (الرعد، 9). وقال تعالى: **﴿عالمُ الغيب والشَّهادة وهو الحكيم الخبير﴾** (الأنعام، 73). وقال تعالى: **﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأَرض ولا أصْغَرَ من ذلك ولا أَكْبَرَ إلاَّ في كتاب مُبين﴾** (سبأ، 3).

تاسعا: إنَّ كتاب الله عندما دعا الإنسان إلى النظر في الكون وجَّه نظره بالخصوص - علماً وعَمَلاً - إلى العالم المحيط به والقريب منه، الذي ينتمي إليه ويتوقف في حياته عليه، وهو «عالم الشهادة» الفسيح، الذي جعله الله مختبراً للإنسان يدرب فيه عقله، وورْشاً يمارس فيه نشاطه، وآتاه من الاستعدادات والملكات ما يساعده على كشف خفاياه، وحلِّ ألغازه وخباياه، وتسخير عناصره ومكوناته، والتعرف على حكمة الصانع من خلال مصنوعاته، وعلى العكس من ذلك لم يدفع الإنسان العادي إلى المجازفة والمخاطر باستعمال نظره فيما هو فوق طاقته، من العوالم الأُخرى التي لا ينفذ إليها عقله، أو استأثر الله بعلمها دون خلقه، لكونها فوق عقل الإنسان وليست من مشمولات نظره، ومحاولة كشف أسرارها تعد من التخرُّص على عِلم الغيب، والتجذيف في مَتاهات الشكِّ والريب.

وإذا كانت «المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله على مقدار المعرفة بمصنوعاته»، وإذا كانت هذه المعرفة مطلباً ساميا من مطالب الإنسان وأعزّ رغباته، فإن حكماء الإسلام ينصحون طالبها والراغب فيها بأن يطلبها بالخصوص من «عالم الشهادة» الذي هو العالم المألوف للإنسان، والقريب من مستوى عقله ونظره، بدلا من عالم الغيب الذي

هو فوق مستوى إدراكه العادي. قال ابن عطاء الله في كتابه «الحكم» : «أمرك في هذه الدار بالنظر في مكوناته، وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته». وقال أبو إسحاق الشاطبي في كتابه «الموافقات» : «لا يقال إن المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله على مقدار المعرفة بمصنوعاته، ومن جملتها العوالم الروحانية، وخوارق العادات فيها تقوية للنفس، واتساع في درجة العلم بالله تعالى، لأنا نقول : إنما يطلب العلم شرعا لأجل العمل، وما في عالم الشهادة كاف وفوق الكفاية، فالزيادة على ذلك فضل. ولو لم نجد ما نستدل به على ذلك لكان لنا بعض العذر في التخطي عن عالم الشهادة إلى عالم الغيب، فكيف وفي عالم الشهادة من العجائب والغرائب القريبة المأخذ، السهلة الملتمس، ما يفني الدهر وهي باقية لم يبلغ منها في الاطلاع والمعرفة عُشَر المِعْشار، ولو نظر العاقل في أقلّ الآيات، وأذلّ المخلوقات، وما أودع بارئها فيها من الحِكَم والعجائب لقضى العجب، وانتهى إلى العجز في إدراكه، وعلى ذلك نبَّه الله تعالى في كتابه أن ننظر فيه كقوله تعالى : ﴿**أولم ينظروا في مَلَكُوت السماوات والأَرض**﴾ (الأعراف، 185). ﴿**أَفَلاَ ينظرون إلى الإبِلِ كيف خُلقت وإلى السَّماء كيف رُفِعت**﴾ الآية ﴿**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم**﴾ الآية.(الغاشية 17)، ثم قال الشاطبي : «ومعلوم أنه لم يأمرهم بالنظر فيا حجب عنهم، ولم يكن لهم الاطلاع عليه ـ عادة ـ إلا بخارقة، فإنه إحالة على ما يندر التوصل إليه. وإذا تأملت الآيات التي ذكر الله فيها الملائكة وعوالم الغيب لم تجدها مما أحيل على النظر فيه، ولا مأمورا بتطلب الاطلاع عليها وعلى ذواتها وحقائقها، فهذه التفرقة كافية في أن ذلك غير مطلوب النظر فيه شرعا، وإذا لم يكن مطلوبا لم ينبغ أن يطلب» (الموافقات، ج 2، ص 283 ـ 284).

عاشرا : إن كتاب الله تحدث في غير ما سورة من سُوَره المكيَّة والمدنيَّة عن تسخير ما في السماوات وما في الأرض للإنسان، وامْتنَّ عليه بذلك في غير ما آية من آياته البيِّنات، ولا يمتنُّ الحقّ سبحانه وتعالى على خلقه إلاّ بنعمه الظاهرة والباطنة. ونعمة «التسخير» التي امتنَّ بها على الإنسان تستلزم وضع الشيء المُسخَّر رَهْنَ إشارته،

وطَوْعَ يديه وفي قبضته، وجعله مسُوقاً لتحقيق أغراضه وخدمة مصلحته، حتى يتمكن من الانتفاع به، وتوجيهه الوجهة التي يريد، دون عائق ولا مانع.

غير أن الإنسان لا يمكنه الحصول على هذه النِّعمة الكبرى، والوصول إلى هذه الغاية القُصوى إلا إذا كرَّس جهوده وطاقاته، وواصل محاولاته للكشف عمَّا في الطبيعة من خبايا وأسرار، واستطاع أَن يقطع المراحل اللازمة للتعرف على دخائلها واستقراء خصائصها أولاً بأوّل، وبذلك وحده يهتدي إلى طرق استعمالها، ووُجوهِ الانتفاع بها في مختلف الأَغراض والمقاصد. فلابُدَّ للإنسان إذَنْ من تخطِّي هذه العقبة الكَأْداء، حتى تتِمَّ له نعمة «التسخير» التي مَنَّ الله بها عليه، ووكَلَها إليه، ومقتضى ذلك أَن الإنسان مدعُوٌّ من ربّه إلى استعمال فِكرهِ ونظره في البحث والاستكشاف والاستطلاع، ومُطالب باستكناهِ ما تُمثِّلُهُ ظواهر الكون ومَشاهد الطبيعة من حقائق وسُنَن ونواميس وقوانين.

وواضح أن كتاب الله عندما امتنَّ على الإنسان بتسخير الكون له يكون قد أَعلَنَ على رُؤوس المَلإ أَن تسخير الطبيعة للإنسان ليس بشيء مستحيل، وإنما هو أمرٌ داخل في حدود الإمكان وحيِّز الواقع، وأن تسخير الإنسان للطبيعة بإذن الله وحوله وقوَّته، ليس فوق طاقة الإنسان وقدرته، وإنما عليه أن يُمرِّن عقله، ويصقل فكره، ويَبْذُل جهده، ويمارس حقّه في الكشف عن الحقائق الكونية والنواميس الطبيعية، حتى تنقاد له تمامَ الانقياد، ويبلغ منها المُراد، الذي هو خدمة البلاد والعباد، وليكن واثقاً بأن هذا العمل من جانبه لا يعدُّ تطاوُلاً على الله، وإنما هو امتثال لأَمر الله، وأن الدور الذي يقوم به هو دور البستاني الحاذق الذي يعمل في حديقة الله بإذن من الله.

قال تعالى : ﴿**هو الذي خلق لكم ما في الأَرض جميعا**﴾ (البقرة، 29). وقال تعالى : ﴿**أَلم تَرَ أنّ الله سخَّر لكم ما في الأَرض والفُلْك تجري في البحر**

بأمره﴾ (الحج، 65). وقال تعالى : **﴿وسخَّر لكم ما في السماوات وما في الأَرض جميعا منه إنَّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾** (الجاثية، 13). وقال تعالى :**﴿وسخَّر لكم الفُلْكَ لتَجْري في البحر بأَمره وسخّر لكم الأنهار وسخَّر لكم الشَّمس والقمر دائِبيْن وسخَّر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإنْ تَعُدُّوا نعمة الله لا تحصوها﴾** (إبراهيم، 32 ـ 34). وقال تعالى : **﴿وسخَّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمًّى﴾** (لُقمان، 29). وتوجد نفسُ الآية في سورة فاطر والزمر). وقال تعالى : **﴿والشَّمس والقَمَر والنجومَ مُسَخَّرات بأَمْرِه أَلاَ لَهُ الخَلْقُ والأَمْر تَبَارَكَ الله ربُّ العالمين﴾** (الأَعراف، 54). وقال تعالى **﴿سُبْحان الذي سخَّر لَنَا هذا وما كُنَّا له مقرنين وإنَّا إلى ربِّنا لمنقلِبون﴾** (الزخرف، 13).

حادي عشر : إن الدولة في التصوُّر القرآني الذي يوحي به كتاب الله ليست دولة عشوائية ولا فوضوية، ولا خُرافية ولا ديماغوجية، بل «دولة علمية» قائمة على حسن التقدير، وحسن التدبير، وحسن التسيير، أساسها التخطيط والإحصاء والتتبُّع والاستقراء، بحيث تتوقَّع ما يمكن أن يقع، قبل أن يقع، وتعُدُّ العُدّة لمواجهة العدو الظَّاهر، ومواجهة العَدوّ الخفي، وتتصدى لعلاج ما يعترضها من مشاكل بعد التعرف على طبيعتها وتحليل عناصرها، حتى يكون علاجها لتلك المشاكل علاجاً علمياً منهجيا. وما دام الله تعالى قد خلق آدم على صورته يعشق ما عند ربه من كمال، ويحاول أن يقتبس من صفات الجمال والجلال، فقد أصبح الإنسان مدعوا ليستوحي من مملكة الله ـ الكَوْنية ـ الكُبرى ما ينظم به مملكته ـ الإنسانية ـ الصُّغرى، في حدود الطّاقة البشرية، والإمكانات المادية، وفي نطاق التوجيهات الإلهية.

ومن التوجيهات الإلهية التي قدمها كتاب الله للإنسان في مجال العدّ والإحصاء عسى أن يستوحي منها ويقتبس من نورها في هذا الباب قوله تعالى : **﴿وأَحاط بما لدَيْهم وأحْصَى كلَّ شيْءِ عددا﴾** (الجن، 23). وقوله تعالى : **﴿لا يُغادِرُ صغيرةً**

ولاَ كَبِيرةً إلا أحْصَاهَا﴾ (الكهف،49). وقوله تعالى : ﴿**وكلّ شيء أحْصَيْنَاهُ كِتَابا﴾** (النبأ،28). وقوله تعالى : ﴿**وكلّ شيء أحصيناه في امام مبين﴾** (يس،12)، وقوله تعالى : ﴿**لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً﴾** (مريم،94). وقد كانت هذه الآيات الكريمة حافزا لرسول الله ﷺ على القيام بأول عملية إحصاء لعدد المسلمين الأوائل في فجر الإسلام. روى البخاري في صحيحه عن حذيفة (رضي الله عنه) أنه قال : قال النبي ﷺ «اكتبوا لي في تلفظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفا وخمسمائة رجل، وكان الرسول ﷺ يأمر بإحصاء من معه كلما همَّ بمواجهة المشركين في ساحة القتال». روى الطبراني والبيهقي عن أبي أيوب الأنصاري قال : «خرج رسول الله ﷺ إلى بدْر، فقال لأصحابه تَعَادُّوا، فوجدهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا، ثم قال لهم تعادّوا، فتعادّوا مرّتيْن، فأقبل رجل على بكر له ضعيف وهم يتعادون فتَمَّت العُدّة ثلاثمائة وخمسة عشر».

ومن التوجيهات الإلهية التي قدّمها كتاب الله للإنسان في مجال التخطيط قوله تعالى : ﴿**وبَارَك فيها وقدّر فيها أقْواتها﴾** (فُصّلت، 10). وقوله تعالى : ﴿**وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما نُنزّله إلاّ بقَدَر معلوم﴾** (الحجر، 21). وقوله تعالى : ﴿**وكلّ شيء عنده بمقدار﴾** (الرعد، 8). وقوله تعالى : ﴿**وخلق كلّ شيء فقدره تقدِيرا﴾** (الفرقان، 2).

ومن جوانب التخطيط التي سلّط عليها كتاب الله الأَضواء بشكل خاصّ قوله تعالى : ﴿**وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قُوَّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدُّوكم وآخرين من دونهم لا تعْلَمُونهم الله يعْلَمُهم﴾** (الأنفال 60)، فالإعداد للمعركة، الذي أمر الله به في هذه الآية الكريمة يقتضي عدّة أمور متداخلة ومتشابكة لا يتمُّ الاستعداد المطلوب إلا بها، وفي طليعتها إعداد الكفاءات والخبرات البشرية اللاّزمة. وإعداد الكفاءات والخبرات على الوجه الأَكمل لا يكون إعداداً في المستوى المطلوب إلاّ إذا كان إعداداً شاملا، صحيّاً ونفسيّاً، وتربويّاً وتقنياً.

كما أنّه لابد من إعداد الأسلحة والآليات التي يستعملها الأكفاء المدرَّبون، عند خوض المعركة، أدَقَّ استعمال، وهذا الإعداد لا يصبح في متناول اليد على وجه التحقيق إلاَّ بعد التمكُّن من الفنون العسكرية والصّناعات الحربية، والتمكُّن من هذه الفنون لا يمكن الوصول إليه إلاّ بعد الحصول على درجة عالية من البراعة في العلوم الريّاضية والعلوم الطبيعية.

ثم إن المغامرة بمواجهة العدوّ لا يصحُّ الإقدام عليها إلاّ بعد جمع المعلومات الوافية عنه وعن جيشه، وعن مبلغ قوته الضّاربة، وقوته التي تقف وراء الخطوط، كلّ ذلك مع التخطيط الشامل والتعبئة التامّة للمعركة، نفسياً ومادياً.

وإذا كان كتاب الله قد نصَّ على الإعداد لمواجهة العدوِّ في حالة الحرب - وهي حالة استثنائية - فإن ذلك لا يعني أنّه يرضى للمسلمين بمواجهة المعارك السلمية الأخرى - وهي معارك مستمرة - دون إعداد ولا استعداد. بل إن الإعداد لها والاستعداد يكون من باب أولى وأحرى. وفي سيرة رسول الله ﷺ الأُسوة الحسنة، والأمثلة الرائعة في التخطيط الدَّقيق، والإعداد العميق، لمعارك السِّلم والحرب، مما كان له الأثر البالغ في نُصرة الإسلام، وقيّام دولته الخالدة على مرّ الأَيام.

على أن نفس التوجيه القرآني لممارسة الإعداد والتخطيط نجده ماثلاً فيما قَصّه علينا كتاب الله من قصّة نوح وسفينته، ونجده ماثِلاً فيما قصّه علينا كتاب الله من قصّة ذي القرنين والسدّ الذي أقامه في وجه ياجوج وماجوج، ونجده ماثلاً فيما قَصّه علينا كتاب الله من قصة يوسف وتخطيطه السُّباعي للأَمن الغذائي في مصر، فعن قصَّة نوح قال تعالى : ﴿**واصْنَع الفُلْك بأعْيُنِنا وَوَحْيِنَا**﴾، وقال تعالى ﴿**ويصنَعُ الفُلْكَ وكلَّما مرَّ عليه ملأ من قومه سَخِرُوا مِنْهُ**﴾. وقال تعالى : ﴿**حتى إذا جاء أمْرُنَا وَفارَ التَنُّورُ قُلنَا احمِل فيها من كلٍّ زَوْجَيْن اثْنَين وأَهْلَكَ إلاَّ**

مَنْ سَبَقَ عليه القَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ معه إلاَّ قَليلٌ وقَالَ ارْكَبُوا فيها باسْمِ اللَّه مَجْرَاهَا ومُرسَاها إنَّ ربّي لغفور رحيم﴾ (هود، 36 ـ 41). وقال تعالى : ﴿فكذَّبوه فنجّيناه ومن معه في الفلك﴾ (يونس، 73).

وعن قصة ذي القرنين قال تعالى : ﴿حتَّى إذا بَلَغ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قوماً لا يَكَادُون يَفْقَهون قَوْلاً قالوا يَاذَا القَرْنَيْن إنَّ يَاجُوجَ ومَاجُوجَ مُفْسِدُون في الأَرض فهَلْ نَجْعَل لَكَ خَرْجاً على أن تَجْعَل بَيْنَنَا وبينَهُم سُدّاً قال ما مَكَّنيّ فيه ربّي خَيْرٌ فأعِينُوني بقُوَّةٍ اجْعَلْ بينكُم وبَيْنَهم رَدْماً آتُوني زُبَرَ الحَدِيد حتَّى إذا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْن قال انفُخُوا حَتَّى إذَا جَعَلَهُ ناراً قال آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْه قِطْراً فَمَا اسْطَاعُوا أن يَظْهَرُوه وما اسْتَطاعُوا له نَقْباً﴾ (الكهف، 92 ـ 97).

وعن قصة يوسف قال تعالى حكاية عنه قبل أن يتسلّم مسؤولية التخطيط السُّبَاعي : ﴿قال تَزْرَعُونَ سَبْع سِنِين دَأْبا فَمَا حَصَدْتُم فَذَرُوهُ في سُنْبُلِه إلاّ قَلِيلاً مِمَّا تاكُلُون ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك سَبْعٌ شِدَادٌ يَاكُلْنَ ما قدَّمتُم لَهُنَّ، إلاَّ قليلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأتِي مِنْ بَعْدِ ذلك عامٌ فيه يُغَاثُ النَّاسُ وفيه يَعْصِرون﴾ (يوسف، 46 ـ 49) وبعد أن دعاه عزيز مصر للقيام بتلك المهمة الخطيرة قال تعالى حكاية عنها : ﴿وقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخلِصْهُ لنَفْسِي فلَمَّا كلَّمه قَالَ إنَّكَ اليَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قال اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِن الأَرض إنّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف، 53 ـ 58).

ثاني عشر : إن الدولة في التصور القرآني الذي يوحي به كتاب الله ليست دولة علمانية لا دينية «لايكيّة» ينفصل فيها العِلْم عن الدين، وإنما هي دولة قائمة على أساس الوئام والانسجام بين الدين والعلم، والدين فيها هو مفتاح العلم، ورائده الأول، ومعياره الصحيح، والتوغُّل في خبايا العِلم، والتعمُّق في أسراره، وبذل الجهد في اكتشاف نواميسه وقوانينه واجب ديني مُقدَّس لا يقوم غيره مقامه بحال. من

أجل ذلك كلّه لا يقبل منا بصفتنا مسلمين نهتدي بهدي القرآن، ونسترشد بتوجيهاته وإشاراته، أن نكتفي بالقشرة عن اللباب، أو نقف على عتبة الباب. وليس من الحقّ في شيء أن نعترف بنتائج العلم ثم نتنكر لمقدماته، كما أنه ليس من المنطق في شيء أن نتجاهل حقائق العلم ثم ننتفع بثمراته. ولا يعفينا من مسؤوليتنا في هذا المجال أن نكتفي بالقول : «إن العلم لا يجافي الدين، وإن الدين يشجع على العلم» ثم نقف من العلم وقفة المتفرج المبهوت، فهذا موقف سلبي لا يساعد إلا على إبقاء العلم بمعزل عن الدين، وإبقاء الدين بمعزل عن العلم، على خلاف ما رسمه الإسلام، من الجمع بينهما في وفاق وانسجام، بل ينبغي لنا أن نقول ـ والقرآن حجة لنا من بين أيدينا ومن خلفنا ـ إن العلم جزء لا يتجزأ من مجموع الدين، وإن المسائل التي أثارها العلم الحديث وألقى عليها مزيداً من الأضواء سبق أن أثارها كتاب الله بأسلوبه الخاص، ودعا إلى كشف الستار عنها قبل أن يعتني بها العلم الحديث بعدة قرون، وإن البحث العلمي القائم على التجربة والاختبار إنما بدأ أوّلَ مرة، تنفيذا لأَمره، وبإذنه الصريح.

فكم في القرآن الكريم من آيات تحدثت عن السماوات بما فيها من فضاء وهواء، وكواكب ونجوم، وشمس وقمر، وشفق وغسق، ورياح وسحب، وبرق ورعد. وكم في القرآن الكريم من آيات تحدثت عن الأَرض وما فيها من أثقال وجبال، وبحار وأنهار، ونبات وأقوات، وإنسان وحيوان. وكم في القرآن الكريم من حقائق علمية تضمنتها آياته الكونية في إيجاز وإعجاز، فكان الكتاب العلمي الوحيد الذي وضع في يد الإنسان ـ منذ أربعة عشر قرنا ـ مفاتح النظام الإلهي الدقيق الساري في أجزاء الكون، بينما لم تشرع أبحاث العلم الحديث في تناول تلك الحقائق بالدراسة والاستطلاع إلا منذ قرنين لا غير. وبهذا يتضح لكل ذي عينين أن ميادين البحث التي يرتادها العلم الحديث في الحاضر، والتي ينتظر أن يرتادها في المستقبل كانت منذ البداية ميادين قرآنية إسلامية أظلها الإسلام بظله، وشملها برعايته، ومهّد لدراستها وبحثها تحت قيادته، قبل أن يتنبه إليها العلم الحديث، أو يضرب فيها بسهم.

وإذا كان العلم عندما اصطبغ بالصبغة الغربية قد تنكَّر للدين وانفصل عنه، بل تبرأ منه، فإن له بعض العذر في ذلك ما دام قادة المسيحية تزعموا محاربة العلم، وقادوا حملة التنكيل بمن نبغ فيهم من العلماء. وما علينا ـ ونحن نحاول عودة هذا العلم إلينا عَوْداً على بدءٍ ـ إلاّ أن نطهِّره من شوائب الصبغة الغربية اللادينية التي امتزجت به، ونعيد إليه صبغته الإسلامية الأُولى، عندما كان العلم والدين في الإسلام عبارة عن توأمين، بينهما منتهى التقارب وغاية الوئام، ولا يوجَد بينهما أدنى قطيعة أو انفصام، إذ لم يكن أيّ واحد منهما يتوجس خيفة من الآخر، أو يتوقع منه مجابهة أو معارضة، لا في حالة النقض ولا في حالة الإبرام. وبذلك يصبح كلّ من «صُنْع الله» و«كلام الله» كما جمعهما كتاب الله في صعيد واحد، يكمل بعضهما بعضا، ويفسر بعضهما بعضا، ولا يناقض بعضهما بعضا، لأنهما صادران عن إله واحد ﴿**وإنه لكتاب عزيز لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾ (فصلت، 41 ـ 42).

نعم عندما يُلقِّحُ رجال العلم الحديث معلوماتهم العلمية بكونيّات القرآن، ويلقّح علماء الإسلام معلوماتهم الدينية بحقائق العلم الحديث الأساسية المطابقة لما في القرآن تصبح وجهة نظر الفريقين متقاربة إن لم تكن واحدة، فتتَّحِد الجهود في نضالها، وتنطلق جميع الطاقات من عقالها، وينصهر الكلّ في بوتقة واحدة للعمل على حماية المِلة، وتعزيز الدولة، في جو سليم، من التفاهم المتبادل، والاحترام المتبادل، وبذلك نخرج من عهد المجابهة والتضارب، إلى عهد التكامل والتقارب، فنستقبل قِبلة واحدة، ونستعمل مُعجما واحدا.

ومن البديهي أننا لا يمكننا أن نحَلّق ونطير بجناح واحد، وإنما نطير بجناحين قويَّين، سَليمين متعاونين، كلّ منهما يساهم في الحركة ويساهم في التحليق بنا في أجواء الحضارة العليا : دين لا يتنكر للعلم، وعلم لا يتنكر للدين، وقديما قال أحد

المبرزين من علماء القرآن : «من أصاب حظاً من العلم أوْفَر كان نصيبه من علم القرآن أكثر» (الزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن» ج 2، ص 25).

ألا وإن لله كتابين في الوجود : كتاباً مسطورا أُحكِمت آياته في الذكر الحكيم ﴿**بل هو آيات بيِّنَات في صُدور الذين أُوتُوا العِلم**﴾ (العنكبوت، 49). وكتابا منظورا فصلت آياته في آفاق الكون العظيم ﴿**سَنُرِيهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحقُّ**﴾ (فصلت، 53). وعن هذا الكتاب المنظور يقول الله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل : ﴿**وكذلك نُري إبراهيم ملكُوت السَّماوات والأرض وليكون من المُوقنين**﴾ (الأنعام، 75). ويقول الله تعالى حكاية عن خاتم الأنبياء والمرسلين : ﴿**ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكُبْرى**﴾ (النجم، 18). الكتاب الأول تنطق آياته بلسان المقال، وهو شبه المدخل والمقدمة، والكتاب الثاني تنطق آياته بلسان الحال، وهو المقصود والخاتمة ﴿**وإن إلى ربّك المُنتهى**﴾ (النجم، 42).

وفي كل شيء له آيـــــة تدل على أنه الواحـــــد

الكتاب الأول اقتضت حكمة الله أن يكمل ويبلغ حدّ التَّمام، فأحصى آياته عدداً، والكتاب الثاني اقتضت إرادة الله أن يبقى مفتوحا إلى الأبد، وأن تظل الكتابة فيه دائما سرمدا ﴿**ألاَ لَهُ الخَلقُ والأمْرُ**﴾ (الأعراف، 54).

وإلى كتاب الله المتلو والمسطور يشير قوله تعالى في سورة (الفرقان، 5) ﴿**قُل أنزَله الذي يَعْلَمُ السِرَّ في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيما**﴾. وقوله تعالى في سورة (الواقعة، 75 ـ 80) : ﴿**فلا أُقسم بمواقع النجوم وإنه لقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظيم إنَّهُ لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يَمَسُّهُ إلاَّ المُطهَّرُون تَنْزيلٌ من رَبِّ العَالَمين**﴾.

وإلى كتاب الله المَرْئِى والمنظور، والمفتوحة صفحاته على مرِّ الدهُور وإلى يوم النُّشُور يشير قوله تعالى في سورة (لقمان، 27) : **﴿ولَوْ أنَّ مَا في الأَرض من شجرة أَقلام والبحر يَمدُّه من بعده سبْعة أبْحُرٍ مَا نَفَدت كَلِمات الله إن الله عزيز حكيم﴾**. وقوله تعالى في سورة (الكهف، 109) : **﴿قُلْ لَوْ كان البحر مِداداً لِكَلِمَاتِ ربِّي لنفد البحر قبْل أن تَنفَد كلمات ربِّي ولَوْ جِئْنا بمثله مددا﴾** صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم.